سـليمان

عليه السلام

نسير - إن شاء الله - مع القرآن الكريم فى سورة (ص) فى حديثه عن سليمان عليه السلام، يقول سبحانه:

﴿ووهبنا لداود سليمان - نعم العبد - إنه أواب﴾

وقوله سبحانه: ﴿إنه أواب﴾- أى كثير الرجوع إلى الله، والرجوع إلى الله يكون قبل العمل، وفى أثناء العمل، وبعد العمل - أى الرجوع إلى الله بالاستخارة وإخلاص النية قبل العمل، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» (رواه البخارى وغيره).

أما فى أثناء العمل فإن الأواب لا يأخذ أعماله على أنها وسائل حتمية

مؤدية إلى نتيجة لاشك فيها، وإنما يأخذ الأمر على أنه يرجع إلى الله هداية وتوفيقًا.

﴿إليه يرجع الأمر كله﴾.

وأما النتيجة فإنها بيد الله، إليه المصير.

وما من شك فى أن الإحكام والإتقان وعمل كل ما يمكن من أجل النجاح مطلوب بل واجب، ولكن ذلك شىء واعتقاد أن الأمر كله لله وبالله شىء آخر.

كان سليمان أوابًا.

وفى يوم من الأيام أخذ يستعرض خيله الصافنات الجياد. أى التى بلغ من قوتها ومهارتها أنها تقوم على طرف سنبك يد أو رجل، وكلها جيدة سريعة فى جريها.

استغرق سليمان عليه السلام فى هذا الاستعراض منشرح النفس مسرورًا، لم يشعر بمرور الزمن، ولم يفئ إلى نفسه إلا عندما رأى الشمس توارت خلف الأفق، فعرف أن الخيل صرفته بجمالها وبحسنها عن عبادة الله المفروضة فى هذه الفترة من الزمن - فترة العصر - فقال: ﴿إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب﴾.

والمراد بالخير أى إنى أحببت الخيل، واستغرقنى حبها حتى نسيت ذكر ربى فى هذه اللحظات التى مرت قبل غروب الشمس.

وكأن ذلك جعله يشتاق إليها من جديد فقال:

﴿ردوها على فطفق مسحًا بالسوق والأعناق﴾

يقول على بن أبى طلحة، عن ابن عباس رضى الله عنهما:

جعل يمسح أعراف الخيل، وعراقيبها: حبالها.

وهذا التفسير الجميل هو الذى اختاره ابن جرير الطبرى، فإنه يقول:

لأنه لم يكن ليعذب حيوانًا بالعرقبة، وملك مالاً من ماله بلا سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها.

وللرازى تفسير آخر جميل، إنه يقول:

إن رباط الخيل كان مندوبًا إليه فى دينهم كما أنه كذلك فى دين الإسلام ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها، وذكر أنى لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس، وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه، وهو المراد من قوله: ﴿عن ذكر ربى﴾.

ثم إنه عليه السلام أمر بإعدادها وتسييرها حتى توارت بالحجاب - أى غابت عن بصره ثم أمر الرائين بأن يردوا تلك الخيل إليه، فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها، والغرض من ذلك المسح أمور:

الأول: تشريف لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان فى دفع العدو.

والثانى: أنه أراد أن يظهر أنه فى ضبط السياسة والملك يتضح هذا حيث أنه يباشر أكثر الأمور بنفسه.

الثالث: أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها، فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض.

وقال: فهذا التفسير الذى ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقًا مطابقًا موافقًا، ولا يلزمنا نسبة شىء من تلك المنكرات والمحذورات.

قال: وأنا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة، مع أن العقل والنقل يردها، وليس لهم فى إثباتها شبهة فضلًا عن حجة.

فإن قيل: إن الجمهور فسروا الآية بذلك الوجه، فما قولك فيه؟

فنقول: لنا ههنا مقامان:

المقام الأول: أن ندعى أن لفظ الآية لايدل على شىء من تلك الوجوه التى يذكرونها وقد ظهر - والحمد لله - أن الأمر كما ذكرناه، وظهوره لايرتاب العاقل فيه.

المقام الثانى: أن يقال: هب أن لفظ الآية لايدل عليه إلا أنه كلام ذكره الناس فما قولك فيه؟

وجوابنا: أن الأدلة الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام، ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات ورواية الآحاد لا تصلح معارضة

للدلائل القوية، فكيف بالحكايات عن أقوام لا يبالى بهم، ولا يلتفت إلى أقوالهم؟ والله أعلم.

ويقول صاحب كتاب محاسن التأويل: إن الإمام ابن حزم سبق الإمام الرازى فى هذا الرأى، يقول ابن حزم:

تأويل الآية على أنه قتل الخيل إذ اشتغل بها عن الصلاة خرافة موضوعة مكذوبة، سخيفة باردة، قد جمعت أفانين من القول، لأن فيها معاقبة خيل لا ذنب لها، والتمثيل بها وإتلاف مال منتفع به بلا معنى، ونسبة تضييع الصلاة إلى نبى مرسل، ثم يعاقب الخيل على ذنبه لا على ذنبها. وإنما معنى الآية أنه أخبر أنه أحب حب الخير من أجل ذكر ربه حتى توارت الشمس أو تلك الصافنات بحجابها، ثم أمر بردها فطفق مسحًا بسوقها وأعناقها بيده برًّا بها، واكرامًا لها. هذا هو ظاهر الآية الذى لا يحتمل غيره، وليس فيها إشارة أصلًا إلى ما ذكروه من قتل الخيل وتعطيل الصلاة. وكل هذا قد قاله ثقات المسلمين. فكيف ولا حجة فى قول أحد دون رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ اهـ.

ونأتى الآن إلى قصة أخرى عن سليمان اختلف فيها المفسرون، يقول تعالى:

﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدًا ثم أناب، قال رب اغفر لى﴾.

يقول الإمام الألوسى فى ذلك:

أظهر ما قيل فى فتنته عليه السلام أنه قال: «لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله تعالى، ولم يقل إن شاء الله فطاف عليهن، فلم تحمل إلا امرأة وجاءت بشق رجل» وقد روى ذلك الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة مرفوعًا وفيه: «فو الذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فرسانًا» لكن الذى فى صحيح البخارى أربعون بدل سبعين، وأن الملك قال له: قل إن شاء الله، فلم يقل وغايته ترك الأولى فليس بذنب، وإن عده هو عليه السلام ذنبًا، فالمراد بالجسد ذلك الشق الذى ولد له، ومعنى إلقائه على كرسيه وضع القابلة له عليه ليراه.

فلما رأى سليمان ذلك رجع إلى الله بالاستغفار، ثم أتبع ذلك بالدعاء قائلًا:

﴿وهب لى مُلْكًا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهّاب﴾.

واستجاب الله سبحانه لسليمان وعرفنا بذلك قائلا:

١ - فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب.
٢ - والشياطين كل بناء وغواص.
٣ - وآخرين مقرنين فى الأصفاد.

ثم عقب الله على كل ذلك بقوله تعالى:

﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾.

﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ (ص آية: ٣٩، ٤٠).

ويذكر الله سبحانه وتعالى مرة أخرى عطاءه لسليمان رضى الله عنه فيقول:

﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرًا وقليل من عبادى الشكور﴾ (سبأ آية: ١٢-١٣).

يقول الحسن البصرى رضى الله عنه:

كان يغدو من دمشق، فينزل باصطخر، فيتغذى بها ويذهب رائحًا منها، فيبيت بكابل، وبين دمشق وبين اصطخر مسيرة شهر، وبين اصطخر وكابل مسيرة شهر.

ولقد روى الامام البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

«إن عفريتًا من الجن تفلت على البارحة ليقطع على صلاتى فأمكننى الله منه، فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخى سليمان».

«رب اغفر لى وهب لى ملكًا لا ينبغى لأحد من بعدى، فرددته خاسئًا» اهـ.

وفى قوله تعالى: ﴿**هذا عطاؤنا فامنن أوأمسك بغير حساب، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب**﴾ (ص آية: ٣٨-٣٩).

يقول الإمام ابن كثير:

ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه وأسداه من النعم الكاملة العظيمة إليه قال:

﴿**هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب**﴾ أى اعط من شئت واحرم من شئت، فلا حساب عليك: أى تصرف فى المال كيف شئت، فإن الله قد سوغ لك ما تفعله من ذلك ولا يحاسبك على ذلك، وهذا شأن النبى الملك بخلاف العبد الرسول، فإن من شأنه أن لا يعطى أحدًا إلا بإذن الله له فى ذلك.

وقد خير نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بين هذين المقامين فاختار أن يكون عبدًا رسولاً.

وفى بعض الروايات أنه استشار جبريل فى ذلك فأشار إليه أن تواضع، فاختار أن يكون عبدًا رسولاً صلوات الله وسلامه عليه، وقد جعل الله الخلافة والملك من بعده فى أمته إلى يوم القيامة فلا تزال طائفة من أمته ظاهرين حتى تقوم الساعة. فلله الحمد والمنّة.

ولما ذكر تعالى ما وهبه لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا نبّه على ما أعده له فى الآخرة من الثواب الجزيل والأجر والقربة التى تقربه إليه والفوز العظيم والإكرام بين يديه، وذلك يوم المعاد والحساب حيث يقول تعالى:

﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾.

* * *

ونأتى الآن إلى الحديث عن قصة سليمان مع ملكة سبأ:

يقول صاحب البحر المحيط عن اسم الذى أحضر عرش بلقيس بعد أن ذكر كثيرًا من الأقوال فى ذلك:

«وهذه أقوال مضطربة وقد أبهم الله اسمه فكان ينبغى أن لا يذكر اسمه حتى يخبر به نبى».

وهذه الكلمة الرشيدة لهذا الإمام الجليل ينبغى أن تكون شعارًا فى كل ما لم يصرح به القرآن مما ليس للتاريخ فيه مقال، ولا للعقل فيه مجال.

إن الظن لا يغنى عن الحق شيئًا، وإن كل قول فى اسم الذى أحضر عرش بلقيس، والذى عبر عنه الله تعالى بقوله:

﴿الذى عنده علم من الكتاب﴾.

إنما هو تخمين وظن.

لقد قال بعض المفسرين: إنه جبريل عليه السلام.

وقال أكثر المفسرين: إنه آصف بن برخيا كاتب سليمان أو وزيره، وكان كما يقولون - صديقًا عالمًا.

وقال البعض: إنه الخضر.

وليس هناك ما يشبه الدليل القطعى على شىء من هذا.

أما وسيلته إلى ذلك فلم يتحدث عنها القرآن ولا السنة الصحيحة، وإنما أشار إليها القرآن فى أسلوب غاية فى الدقة والإحكام.

إن القرآن وصف الآتى بالعرش بأنه: (الذى عنده علم من الكتاب).

وهذا يشير - بكل سهولة - إلى أنه من العلماء، ويكون معنى الإشارة أن عرش بلقيس كان إحضاره عن طريق العلم، وأن طريق العلم أسرع من طرق الشياطين، ومردة الجن.

والوسيلة - إذن - فى إحضار عرش بلقيس، إنما كانت الوسيلة العلمية. أما كيف؟ أما التفاصيل، أما دقائق التنفيذ فإن ذلك كله لا سبيل إلى معرفته ولعل تقدم العلم يكشف فى يوم من الأيام الأسلوب الذى أتى به عرش سليمان، أو على الأقل يقربه من الأفهام. والله أعلم.

سـليمان والعلم

الواضح من الجو القرآنى أن سليمان عليه السلام كان يعيش فى حضارة متقدمة، وأن سليمان عليه السلام كان على معرفة واسعة عميقة.

إن سليمان عليه السلام يقول:

﴿يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء﴾.

ثم يعترف بنعمة الله تعالى عليه وعلى أبيه قائلًا:

﴿إن هذا لهو الفضل المبين﴾ (النمل آية: ١٦).

ويقول الله تعالى مبينًا ما منح سبحانه سليمان وأباه من العلم.

﴿ولقد آتينا داود وسليمان علمًا﴾ (النمل آية: ١٥).

أهو العلم الوهبى؟

أم هو العلم الكسبى؟

الواقع أنه لا يتأتى الاقتصار على أحد نوعى العلم.

والواقع من ناحية أخرى إننى كنت أعتقد أن العلم الوهبى مقصور على الجانب العقدى والجانب الأخلاقى، ثم تبينت أن هذا الرأى خطأ صريح حينما التقيت بالشيخ الحارون الحجار.

لقد كان شيخاً سوريًّا من محبى سيدنا محيى الدين بن عربى، وكان من الأفراد القلائل الذين يفهمون الشيخ الأكبر، ويتذوقون آراءه، ويسيرون فى تياره.

كان ملهما فى علوم الدين، وهذا ما كنت أعتقد أنه طبيعى، ولكنه كان ملهمًا أيضًا فى علوم المادة: الزراعية، الطبيعية، الأحياء.. وهذا هو ما فوجئت به.

ومن أجل ذلك فإن من يقصر الإلهام على علوم الدين فإنه يكون مخطئًا.

وكان سليمان عليه السلام ملهمًا فى علوم الدين والدنيا، ولكنه كان يضيف إلى ذلك العلم الكسبى: تعلمًا وتجربة، وملاحظة واستقراء.

وكانت مظاهر الحضارة المادية بادية واضحة كما ذكرنا بعضها من قبل.

ومن مظاهر علم سليمان ما ذكره القرآن بقوله:

﴿عُلِّمنا منطق الطير﴾ (النمل آية: ١٦).

وفى يوم من الأيام أعطى سليمان الأمر بتجمع جيشه جميعه، ويذكر

القرآن ذلك قائلًا:

﴿وحُشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون، حتى إذا أتوْا على وادى النمل قالت نملة: يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون، فتبسم ضاحكًا من قولها وقال: رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدىّ وأن أعمل صالحًا، ترضاه، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين﴾ (النمل آية: ١٧-١٩).

وأخذ سليمان عليه السلام يستعرض الجيش من الجن والإنس والطير، فرأى الهدهد غائبًا: إنه لم يستجب للحضور، وكان من الطبيعى أن ينال جزاءه، ولا يتأتى أن تمنع النبوة رحمتها ورأفتها أن ينال المهمل أو المقصر جزاءه.

ومهما امتلأ قلب الزعيم أو القائد رأفة ورحمة، فإن ذلك لا يمنع من فرض الجزاء على كل مقصر، وإلا فسد الأمر، ومن هنا كان قول سليمان عليه السلام:

﴿لأعذبنه عذابًا شديدًا، أو لأذبحنه﴾ (النمل آية: ٢١).

ولكن الأمر لا طغيان فيه، وإنما هى العدالة، ومن أجل ذلك قال سليمان عليه السلام:

﴿أو ليأتينى بسلطان مبين﴾.

أى سبب مقنع للعفو حتى يكون العفو.

وجاء الهدهد فقال لسليمان عليه السلام:

﴿أحطت بما لم تحط به﴾ (النمل آية: ٢٢).

وهى كلمة فى غاية الجمال تعنى:

إننى أنا الهدهد الضعيف الذى لا يكاد يكون شيئًا بجوار النبى الملك سليمان العظيم، قد أحطت من العلم بما لم يحط به نبى الله، وذلك أن العلم لا نهاية له، وأن الإحاطة به مستحيلة، والناس يتقاسمون بعضه، يحيط منهم فريق بما لم يحط به الآخر، وهم جميعًا لا يحيطون إلا بالبعض الضئيل:

﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ (الإسراء آية: ٨٥).

ويستمر الهدهد فى حديثه:

﴿وجئتك من سبأ بنبأ يقين﴾.

﴿إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾.

ثم أخذ الهدهد يعلل استمرار هذا العمل الضار، فقال:

﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾.

وتابع الهدهد حديثه مبينا الصراط المستقيم:

﴿ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾.

وقال سليمان عليه السلام:

﴿سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾.

ثم كتب سليمان كتابًا وأعطاه للهدهد قائلًا:

﴿اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون﴾.

ولما وصل الكتاب إلى الملكة جمعت رؤساء مملكتها وحدثتهم قائلة:

﴿يأيها الملأ إنى ألقىَ إلى كتاب كريم ، إنه من سليمان، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، ألا تعلوا على وأتونى مسلمين﴾.

ثم قالت:

﴿يأيها الملأ أفتونى﴾.

لقد شاورتهم فى الأمر لتتبين الرأى الرشيد، ولكيلا تتحمل مسئولية الرأى وحدها.

إذا كنت ذا رأى فكن ذا مشورة..

وأخذت تقلب الرأى معهم، فقالوا:

﴿نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين﴾ لقد كانوا فى طاعة تامة لها.

وفكرت فى الأمر طويلا، وانتهت إلى رأى فيه حكمة وفيه عمق، وهو رأى ناضج، قالت:

﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون، وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون﴾.

وأرسلت الهدية.

ماذا كانت الهدية؟

أنها هدية ملكة غنية خائفة، تريد أن تتحاشى كارثة تلم بها فى نفسها ومن يدرى؟ أو تلم بعرشها فتذهب به.

وما من شك فى أنها كانت عظيمة:

قال ابن عباس: مائة وصيف ومائة وصيفة. قال وهب وغيره:

عمدت بلقيس إلى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية، فألبست الجوارى لبس الغلمان: الأقبية والمناطق، وألبست الغلمان لبس الجوارى، وجعلت فى أيديهم أساور الذهب، وفى أعناقهم أطواق الذهب، وفى آذانهم أقراط وشنوق مرصعات بأنواع الجواهر، وحملت الجوارى على خمسمائة رمكة (أى الفرس)، والغلمان على خمسمائة برذون، على كل فرس سرج من الذهب مرصع بالجواهر وأغشية الديباج، وبعثت إليه لبنات من الذهب، ولبنات من الفضة، وتاجًا مكللاً بالدر والياقوت، وأرسلت بالمسك والعنبر والعود واليلنجوج، وعمدت إلى حُق جعلت فيه درة بقيمة ثمينة غير

مثقوبة، وخرزة جزع معوجة الثقب، ودعت رجلًا من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو وضمت إليه رجالًا من قومها أصحاب عقل ورأى، وكتبت مع المنذر كتابًا تذكر فيه الهدية، وقالت:

إن كنت نبيًّا ميز بين الوصفاء والوصائف، وأخبرنا بما فى الحُق قبل أن تفتحه، واثقب الدرة ثقبًا مستويًا، وأدخل فى الخرزة خيطًا من غير علاج إنس ولا جن، وأمرت بلقيس الغلمان فقالت:

إن كلمكم سليمان فكلموه بكلام تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء، وأمرت الجوارى أن يكلمنه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال، ثم قالت للرسول:

انظر إلى الرجل إذا دخلت، فإن نظر إليك نظرًا فيه غِضب، فاعلم أنه ملك فلا يهولنك أمره ومنظره فأنا أعز منه، وإن رأيت الرجل بشاشًا لطيفًا فافهم أنه نبى فتفهم قوله ورد الجواب، فانطلق الرسول بالهدايا وأقبل الهدهد مسرعًا إلى سليمان، فأخبره الخبر. فأمر سليمان الجن أن يضربوا لبنًا من الذهب والفضة ففعلوا، وأمرهم بعمل ميدان مقدار تسعة فراسخ وأن يفرشوا لبن الذهب والفضة، وأن يخلوا مقدار تلك اللبنات التى معهم، وأن يعملوا حائطًا شُرّفه من الذهب والفضة، ففعلوا ثم قال:

أى دواب البر والبحر أحسن؟ فقالوا: يا نبى الله ما رأينا أحسن من دابة من دواب البحر، يقال لها: كذا وكذا مختلفة ألوانها لها أجنحة وأعراف ونواص.

قال: علىّ بها الساعة: فأتوا بها. قال: شدوها بين يمين الميدان وشماله، ثم قال للجن:

علىّ بأولادكم، فاجتمع منهم خلق كثير فأقامهم عن يمين الميدان وشماله ثم قعد سليمان فى مجلسه على سريره، ووضع له أربعة آلاف كرسى على يمين الميدان وعلى شماله، أمر الانس والجن والشياطين والوحوش والطير والسباع فاصطفوا فراسخ عن يمينه وشماله، فلما دنا القوم إلى الميدان ونظروا إلى ملك سليمان رأوا أول الأمر الدواب التى لا يرى مثلها تروث فى لبنات الذهب والفضة، فلما رأوا ذلك تقاصرت أنفسهم وخبأوا ما معهم من الهدايا، وقيل: إن سليمان فرش الميدان بلبنات الذهب والفضة، وترك على طريقهم موضعًا على قدر ما معهم من ذلك الموضع، فلما رأى الرسل موضع اللبنات خاليًا خافوا أن يتهموا بذلك فوضعوا ما معهم من اللبن فى ذلك الموضع، ولما رأوا الشياطين هالهم ما رأوا وفزعوا، فقالت لهم الشياطين: جوزوا لا بأس عليكم، فكانوا يمرون على كراديس (جماعات) الإنس والجن والوحش والطير حتى وقفوا بين يدى سليمان، فأقبل عليهم بوجه طلق، وتلقاهم تلقيًا حسنًا، وسألهم عن حالهم فأخبره رئيس القوم بما جاءوا فيه، وأعطوه كتاب الملكة فنظر فيه، وقال: أين الحُق؟ فأتى به فحرّكه، فجاءه جبريل فأخبره بما فيه فقال لهم: إن فيه درة ثمينة غير مثقوبة، وخرزة معوجة الثقب، فقال رسول الملكة: صدقت.

فثقِّب الدرة، وأَدْخِل الخيط فى الجزعة، فقال سليمان:

من لى بثقبها؟ وسأل الإنس والجن فلم يكن عندهم علم، ثم سأل الشياطين فقالوا:

نرسل إلى الأرضة، فلما جاءت الأرضة أخذت شعرة فى فيها ودخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر.

فقال لها سليمان: ما حاجتك؟

قالت: تُصير رزقى فى الشجر.

فقال: لك ذلك.

ثم قال: من لى بهذه الخرزة؟

فقالت دودة بيضاء: أنا لها يا نبى الله، فأخذت الدودة الخيط فى فيها، ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر.

فقال لها سليمان: ماحاجتك؟

قالت: يكون رزقى فى الفواكه.

قال: لك ذلك.

ثم ميز بين الغلمان والجوارى، بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم، فجعلت الجارية تأخذ الماء بيدها وتضرب بها الأخرى، وتغسل وجهها، والغلام يأخذ بيديه ويغسل وجهه. وكانت الجارية تصب الماء على باطن ساعدها والغلام على ظاهره، فميز بين الغلمان والجوارى» اهـ.

ووصلت الهدية إلى سليمان. فقال:

﴿أتمدونن بمال؟ فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾ (النمل آية: ٣٦).

وأحب سليمان أن يرد الهدية فى صورة صاخبة مرعبة حتى يكون للجو الذى ردت فيه الهدية أثره الفعال فتكون النتيجة كما أرادها:

﴿ألا تعلوا على وأتونى مسلمين﴾.

وقال سليمان من هذا المنطلق:

﴿ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ (النمل آية: ٣٧).

ولم يشك سليمان فى أنهم - بلقيس والملأ من قومها - سيأتون مسلمين.

ولعل سليمان عرض جيشه على رسل الملكة وأراهم ما هو فيه من قوة وبأس: أراهم الجيش فى الجن والإنس والطير، وأفزع الرسل بهذا العرض، فرجعوا فى فزع وفى رجفة، وتحدثوا بما رأوا من ملك فخم شامخ.

وها هو ذا سليمان عليه السلام يجلس بين أصفيائه ذات يوم، ويتحدث معهم عن ملكة سبأ وعن عبادتها للشمس من دون الله، وعن رده للهدية التى أرسلتها إليه ملكة سبأ تريد بذلك أن يغض الطرف عنها وعن زيفها وضلالها، قائلاً حين ردها:

﴿يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين﴾.

فرد عليه عفريت من الجن قائلا:

﴿أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، وإنى عليه لقوى أمين﴾.

وأجاب شخص آخر يتحدث عنه القرآن الكريم على الوضع التالى:

﴿قال الذى عنده علم من الكتاب: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾.

ونفذ الذى عنده علم من الكتاب ما قال، وجاء بالعرش فى لمح البصر.

فلما رأى سليمان العرش مستقرا عنده قال:

﴿هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر؟ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم﴾.

والقرآن يعرفنا بهذه القصة أن العلم يفعل الأعاجيب، وأنه يفعل ما لا تفعله الجن، وأن مقدرة العالم تصل إلى ما لم تصل إليه مقدرة عفريت من الجن، وأنه بالعلم تطوى الأرض، وتزول المسافات، وتتحقق المعجزات.

والقرآن الكريم حينما يقول:

﴿الذى عنده علم من الكتاب﴾.

فإنه من الواضح أنه لا يقصد العلم الوهبى وإنما العلم الكسبى، إنه علم من «الكتاب»، إنه ليس بوحى.

وهذا يجعلنا نتساءل:

إلام بلغت الحضارة فى عهد سليمان؟

إن الاتيان بالعرش ليس معجزة، والجو القرآنى لا يشير إلى معجزة. ولو كان الأمر أمر معجزة لكان سليمان أولى بها، إنه هو النبى الرسول.

إنها إذن ثمرة علم من «الكتاب» وكل ما كان ثمرة من الكتاب فهو كسبى، إنه حضارة بكل ما تتطلبه الحضارة من جهد فى الملاحظة والتجربة والاستقراء، وبكل ما تتطلبه الحضارة من تعمق فى الأسرار والظواهر والتصرف فى قوانين الكون باستخدام قوانين أخرى للتغيير والتبديل، والتعديل والإلغاء أو التقوية.

والقرآن الكريم يعلمنا بهذه القصة، فبالعلم - كما قلنا - تُطوى الأرض، وتزول المسافات، أو يزول الزمن الذى يتطلبه - فى نظرة الجاهلين - قطع المسافات والأمكنة.

كم من الزمن يستغرقه الآن انتقال الصوت عبر آلاف الأميال التى تفصل بين قطر وقطر حينما يتحدث الإنسان فى التليفون أو فى الإذاعة؟

والصور عبر الأمكنة حينما يستخدم الإنسان التليفزيون؟.

ومهما يكن من شىء فإن مردة الجن تعجز عما يستطيعه الإنسان بالعلم.

وبلغ سليمان أن بلقيس فى الطريق، وأحب سليمان أن لا تتلكأ الملكة أو يتلكأ ملؤها فى الإيمان فأراد أن يفاجئها بأمور خارقة فأمر:

﴿نكروا لها عرشها﴾.

أى غيروا شيئًا من زينته وما حلى به من جواهر.

لماذا:

﴿ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون﴾.

وهو اختبار لفطنتها وذكائها.

وأراها سليمان العرش وقال لها:

﴿أهكذا عرشك﴾.

فقالت متحفظة فطنة ذكية:

﴿كأنه هو﴾.

ويقول سليمان عن نفسه وقومه:

﴿وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾.

أما هى فقد ألفت الكفر ونشأت فيه ولم تفكر فيما ألفته:

﴿وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين﴾.

لقد منعها ما منع العرب الذين قالوا:

﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾.

ويصدق عليها ما صدق عليهم حينما قال القرآن الكريم ساخراً من عقليتهم:

﴿أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾

ولم يكتف سليمان بذلك: فقد أمر أن يبنى لها صرح - أرضه من زجاج يجرى من تحتها الماء وفيه سمك وحيوانات تسير تحت الزجاج وتظهر صورتها منه:

وقيل لها ادخلى الصرح (أى القصر).

﴿فلما رأته حسبته لجة، وكشفت عن ساقيها﴾.

لقد كان من الإتقان فى الصنع بحيث حسبته لجة.

﴿إنه صرح ممرد من قوارير﴾.

وآتت المفاجأة ثمرتها فقالت:

﴿رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾.

لقد آتى الله سليمان ملكًا لا ينبغى لأحد من بعده، وسخر له الجن، وسخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، وسخر له الريح عاصفة تدمر ما يشاء ، وعاش سليمان فى هذا الملك مسيطرا على الجن والإنس والطير ثم.. جاء ملك الموت وقبض روحه.

﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة﴾.

وكان موت سليمان عبرة، فإنه اتكأ على عصاه ومات متكئًا، ومكث

كذلك ما شاء الله أن يمكث والجن لا تعلم بموته، ولكن السوس أخذ ينخر فى عصاه فتكسرت فخر، فظهر للجن موته وكانوا لا يعلمون.

قال أصبغ بن الفرج، وعبد الله بن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم:

قال: قال سليمان لملك الموت:

«إذا أمرت بى فأعلمنى ، فأتاه فقال: يا سليمان قد أُمرت بك، قد بقيت لك سويعة».

فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحًا من قوارير ليس له باب، فقام يصلى فاتكأ على عصاه قال:

فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متوكىء على عصاه، ولم يصنع ذلك فرارًا من ملك الموت. قال: والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حى.

قال: فبعث الله دابة الأرض يعنى إلى منسأته فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر، فلما رأت الجن ذلك انفضوا وذهبوا

. قال: فذلك قوله:

﴿ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته، فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين﴾.

قال أصبغ: وبلغني عن غيره أنها مكثت سنة تأكل من منسأته حتى خرّ.

وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف وغيرهم والله تعالى أعلم ا.هـ.

obeikandl.com